رحلتي في طلب العلم

الدكتور/ سامر مظهر قنطقجي

FREE EDITION
كتاب مجاني لايباع
NOT FOR SALE

بقلم الأستاذة/ وعد طالب شكوة

دار إحياء للنشر الرقمي

الرسالة والغاية

إن مشروع (كتاب الاقتصاد الإسلامي الالكتروني المجاني) يهدف إلى:

-تبني نشر مؤلفات علوم الاقتصاد الإسلامي في السوق العالمي لتصبح متاحة للباحثين والمشتغلين في المجال البحثي والتطبيقي.

-يعتبر النشر الالكتروني أكثر فائدة من النشر الورقي.

-كما أن استخدام الورق مسيء للبيئة ومنهك لها.

والله من وراء القصد، عن أسرة مشروع كتاب الاقتصاد الإسلامي الالكتروني المجاني

الدكتور/ سامر مظهر قنطقجي

مركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامية

Islamic Business Researches Center

الإصدار الإلكتروني الأول: تشرين الثاني
٢٠١٣
الإشراف الفني العام
دار إحياء للنشر الرقمي

البريد الإلكتروني: ehiaa.pup@gmail.com

رحلتي في طلب العلم

الدكتور سامر مظهر قنطقجي

بقلم الأستاذة/ وعد طالب شكوة

رحلتي في طلب العلم

لقد ورد في الأثر أن (اطلب العلم من المهد إلى اللحد)، لذا جاهدت في ميدان العلم لأصل إلى أعلى الشهادات التي تؤهلني إلى فتح آفاق جديدة في حياة نلجها مكرهين، ونغادرها مجبرين، وبين الكره والإجبار رحلة طويلة لك فيها أن تختار، تقرّر، وتنفذ، تتحمل، أو تفر وتنهار.

لم أكن يوماً أحبّ الوقوف في آخر الصّفّ، أو الجلوس في زاوية معتمة، آمنت بما منحني ربّي من نِعم، وعملت جاهداً على ترجمتها سلوكاً على أرض الواقع، وصارعت نفسي وكلّ من حاول الوقوف في وجه طموحي ومنعي من الحصول على شهادة تعتبر قمة علمية واجتماعيّة، حاولت التّربّع عليها بكلّ ما أوتيت من نشاط ومثابرة وحبّ لتحدي الصّعاب، لتكون رحلة عبور إلى عقول الشّباب والرّاغبين بفتح الأبواب المغلقة.

قد طال مشوار الصعود إليها كثيراً بسبب إجراءات التّسجيل والدّراسة في سورية والكثير من البلاد العربيّة، فليس للوقت قيمة ولا أهميّة تُذكر، والمعوّقات الفولاذيّة جاهزة، والرّدود الحجريّة مستعدة لتسيل دماء الطّامحين كلّ لحظة، وعلى كلّ لسان للأسف في كلّ الاتجاهات وخاصّة قي الجامعات مع أنه يفترض بها أن تكون أفضل الأماكن وأرقاها من جهة تقدير قيمة الوقت والجهد . ولا أبالغ إذا أضفت أن التشجيع على السير في طريق البحث والعلم معدوم تماما نظراً لأسباب موضوعيّة لا تعدّ ولا تحصى.

تحتفظ ذاكرتي رغم كلّ ما مرّ عليها بتعليق للأستاذ الدكتور حسين القاضي عن سؤال وُجه إليه عندما كنا طلاباً في مرحلة دبلوم الدراسات العليا، وصف من خلاله فعلنا في محاولة الوصول إلى الدكتوراه على النّحو التّالي: تصوروا أننا (أي الأساتذة من حملة الدّكتوراه) نجلس على كرسي ممتد، وأنتم تحاولون الجلوس بيننا، أي كأننا (نحن الطلاب) نزيحهم يمنة ويسرة لنجد مكانا نجلس بينهم.

شعرت بالحزن منه وعليه، فقد رسم بكلماته مشهداً محزناً لا أنساه حزنت منه، فكيف لعاقل أن يؤمن بدوام الحال له؟ ويقرر حرمان ابن الغد من المستقبل. وحزنت عليه وعلى أمثاله ممن يُسمَّون رجال العلم، وما هم إلا أصحاب نظرات قاصرة. وآلمني كلامه فمحاولته الاستئثار بنعم الله أنانية يرفضها علماء أجلاء من فقهاء المسلمين ومن غير المسلمين القدامى منهم والجدد. لقد أرّقني موقفه وأنا أبحث عن سرّ هذا العدوان على عباد الله من الطّلاب، ورماني في متاهات سؤال لم أجد له جوابا: علام كل هذا الصراع؟ ولم توضع الحجارة في كلّ طريق؟

لكن المؤلم أكثر، أنه لم يكن الوحيد بهذه النّظرة القاصرة بل أمثاله كثر عرفتهم بصورة مباشرة، وعرفني على غيره طلاب بعض الجامعات في دول شقيقة التقيتهم بعد الانتهاء من إلقاء محاضراتي هنا وهناك، ولعلّ أكثر ما يثير العجب هو استغراب كثير من الطلاب لكلامي ووقوفي معهم ببساطة ويسر، فأضحك بمرارة ملاطفاً بحنان: هل بذلُ المساعدة أمر عجيب؟ أم أنّ مدّ يد العون لالتقاط السابحين الجدد في بحر العلم منظر غريب؟ فيجيبون بحسرة الغريق: لا هذا ولا ذاك لكنّ نمطية معينة من رتبة الأساتذة وحملة الدّكتوراه من سكان البرج العاجيّ بنت حواجز يصعب اختراقها،

www.kantakji.com

وتفرض على الشباب الطامحين حرباً صعبة مع الكبار للاستفادة من خبرتهم، مما يُولّد خللاً في العلاقات الإنسانيّة. وأبتلع غصتي وأصرّ على الدفاع عن الخيّرين في هذه الحياة: كثرة هؤلاء المعيقين لا يمنع وجود أفاضل كثر يسيرون على هدي خاتم المرسلين (عليه الصلاة والسلام) فيتعلمون ويعلمون. ولن تقف حجرة مهما كبرت في طريق طالب العلم لكنها ظاهرة تستحق الذكر في هذا المقام فهذه ثقافة غريبة عن أهل العلم الذين أعطاهم الله العقل ليكتشفوا أسرار خلق الله ويعرفون العباد عليها.

ولابدّ من سائل يقول: ماذا تريد أن تعلمنا؟ وإلام تريد أن توجهنا؟ فنحن أصحاب الاختصاصات العلمية نحتاج إلى علوم مدعمة بالأدلة والبراهين، وكثير منا لا يلقي بالاً للحكايات؟ وأجيب:

بدأت بتوثيق وكتابة تجربتي في الحياة منذ أيام دراستي الجامعية الأولى، لإيماني أنّ حياة الإنسان رحلة قصيرة مهما طالت، وطويلة مهما قصرت وفيها من المفاجآت والعبر التي يمكن أن يستفيد منها أناس آخرون، وقد صدق حَدسي فاليوم جاء من يطلب كتابتها ونشرها على الملأ، فلعل فيها ما يفيد من يريد وضع خطواته على سلّم الصعود إلى قمّته، أو من سيتابعني على ما درجت عليه، لكنّ الإلحاح القديم المتجدّد يأتيني من طلبة العلم الذين ألتقيهم عندما أسافر محاضراً أو مشاركاً في أحداث علمية، ويتكرر هذا السؤال من قبل طلاب بلدي، وغيرهم من الأصدقاء. هؤلاء الأحبّة الذين يجيدون فنّ الإلحاح حتى تيسر لي وقت لتلبية رغبتهم.

وبما أني اخترت السير في طلب العلم، فأنا اخترت الطريق الطّويل، ولا أظن أنني جاوزت مرحلة طالب العلم الذي يسعى ليتعلم، يكبو جواده تارة فيفشل لكنه لا يستسلم، تحلق أجنحته تارة أخرى فينجح لكنه لا يسمح لغروره أن يهوي به إلى الأسفل، وقلما تشق أفكاره طريقها لتبصر النور، لكنّه لا يدفنها في العتمة ربما سيأتي أحد ما وينميها.

ورغم تجربتي المتواضعة، فلن أبخل بعرضها على من طلبها، خاصة من فئة الشباب والشابات، فهم عماد المستقبل وأمل الأمة، نسأل الله أن يُخرج منهم علماء يكونون رِكزاً لأمتهم وعونا للناس جميعاً، فرسالة العلم لا يدّعيها مدّعٍ بعينه بل هي شركة قائمة بين الناس العقلاء بغض النظر عن جنسهم وجنسيتهم وعن أعمارهم ولونهم، فالمشتَرك بينهم غير مرئي، فهو يقبع في أشرف مكان من الجسم وأعلاه، خبأه خالقه عن الأنظار وأمّن له الحماية الكبيرة، ورغم تواصله مع باقي أعضاء الجسم إلا أن له خصوصياته التي تحتاج أشياء تخصه، فدورة الدم فيه خاصة، وشبكة الأعصاب فيه خاصة، بل إن كل مكوناته خاصة به دون باقي الجسم. لقد ميّز الله تعالى الخالق البارئ هذا الكائن وشرفه عن غيره من المخلوقات به، إنه العقل.

- بدأت الرحلة كما تبدأ مع كل شخص: حلم الكبار بمستقبل باهر للصغار، فأمي الغالية ببصيرتها النافذة، وثقتها بغد مشرق لأبنائها كانت تشير إليّ باعتزاز وتقول لزوارها عني: إن ولدي هذا سيكون عالماً. ولطالما استغربت هذه الكلمات، لكنها سهام أمي التي اخترقت أذني، لم تغادر رأسي، فقد حُفرت في عقلي وقلبي، ثم كان اهتمام والدي بدراستي وسعيه لأكون متميزاً بمثابة الماء والهواء والرعاية الصحيّة لنبتة غالية ننتظر ثمارها شأنه في ذلك شأن أي أب في هذه الدنيا، يؤمن بخلوده عن طريق أبناء يتابعون مسيرة إعمار الكون وأداء رسالة رضينا حملها منذ أن خلق الله (جل في علاه) آدم (عليه السلام).
- تعلمت التعبير عمّا أريد مذ كنت فتى في الصف السابع، على يد أستاذنا (منذر الشعار رحمه الله) حيث كان يكتب أشعاره في درس اللغة العربية بعد الانتهاء من شرح المقرّر، فيأخذ من وقتنا، ويعطينا فرصة للكتابة الحرة قائلاً: ليخرج كل منكم دفتراً، وليكتب فيه ما يشاء، فالمهم أن يكتب. ومذ ذاك الوقت أكتب في دفتري ومازلت احتفظ به حتى الآن، ومازلت أتابع كتاباتي فيه، مع إدخال صفحتي الشخصية على (الفيسبوك) معه.

www.kantakji.com

نلت الشّهادة الثانوية بعلامات لم تؤهلني لدخول الطب أو الهندسة مما تعارف عليه الناس كميدان للتفاخر بالعباقرة والأذكياء، وكان اختصاص الاقتصاد هو قدري الحميد، ومع ذلك لم أكن طالباً مداوماً في الجامعة بسبب حالة عائلتي المادية التي منحتني فرصة مساندة الوالد في عمله المكتبيّ منذ الصّفّ الأول الثانوي، لم يكن الأمر سهلاً لكنه واقع الكثير من العائلات، ولم أكن لأقبل بجعل شبح الفقر عائقا أمامي بل غالباً ما أتجاوزه بالصبر والدعاء والجهد والمثابرة، ورغم صعوبة الأمر إلا أنّ التّغلب عليه ممكن باللجوء إلى الله واستخراج القدرات الجبارة التي منحها الله لكلّ إنسان، وهكذا ألزمت نفسي بالاعتماد على نفسي في الحصول على المحاضرات، وشرح المعلومات بنفسي على نفسي مما أكسبني مهارة التواصل مع ذاتي، والقدرة على الشرح.

- يشرفني أنني كنت أعمل صغير السّنّ في مكتب والدي كلّ يوم في مدينتي حماة وطالباً دؤوباً يدرس معتمداً على الله وعلى نفسه وتكلله دعوات الوالدين الطّيبة، وألزم نفسي بالدوام في كلية الاقتصاد بدمشق أيام الامتحان، وعندما أجد الوقت مناسباً كنت أسعى لحضور بعض المحاضرات وخاصة في سنة الاختصاص أي في السنة الرابعة.
- وأذكّر نفسي والجميع أنّ عمر الإنسان محطّات، ما هي إلا منعطفات، تتنوع في آثارها وأهميتها، فمنها الشامخ الذي يعطي الإنسان دفعاً ودفقاً، ومنها النابذ الذي يدمّر الإنسان الضعيف، أما المؤمن القوي والإنسان المتماسك فهو الذي يقوم كلما وقع، ويسعى لأداء رسالته في إعمار الكون شاء من شاء، وأبى من أبى. ويكتسب العلم والمعرفة في أيّ ميدان يكون فيه بإرادته أو رغماً عنه.

www.kantakji.com

محطات شامخة في حياتي:

١) **أمي (سهام)**، نبع الحبّ والحنان، صاحبة الكلام الرّنان والرؤى الجسام، أصابت بسهام أحلامها صميم عقلي وفؤادي، وسقت بإصرارها بذرة الطموح وتحدّي المعوّقات: فمن حصّل شهادة الدكتوراه ليس بأفضل منك، ولا أقبل أن تكون أقلّ مرتبة منه، عملت جاهدة على أن تغرز فِيّ العلم وتقنعني بأني من العلماء، تتباهى بي أمام الأقارب والصاحبات وأنظر إليها رؤوفا ببصيرتها الوقّادة وكأن الكلام لا يعنيني، أو ربما لأن أحلامها أصبحت جزءاً من كياني وذاكرتي، فلم أعد أناقشها في أمر تصرّ على أنّه من المسلمات.

لكن بعد حصولي على الدكتوراه بسنوات، وفي عام ٢٠٠٥، كنت أقف أمام جمهرة من الأمهات لألقي كلمة بمناسبة افتتاح مدرسة خاصّة. استرجعت قول الشّاعر أحمد شوقي:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيّب الأعراق

تسمّرت صورة واحدة جليّة أمام ناظريّ، وتدفّقت ذكريات تروي طريقة في التربية الخلاقة والبناء، يحصل هذا عندما تشير الأم لصغيرها بين الناس واثقة بلا جلل قائلة: إن ولدي هذا سيكون من العلماء، أخبرتهم عن أمي شرحت لهم ما زرعت في نفسي دون أن أتلفظ باسمها . وعندما انتهيت جاءت أختي (حنان) لتقول: أكنت تتكلم عن أمك؟ فقلت لها : نعم. والحقيقة أن كلّ الأمهات أمهات، لكن أمي (رحمها الله تعالى) تميزت بهذه اللّمسات، تلك الحروف وهاتيك الكلمات التي ارتسمت واضحة في حياتي وعلى ملامح شخصيتي.

٢) **أبي (مظهر)**، وأحار في ضبط حركات اسمه فإن قلت (مَظْهَر) فهو كان حسن السمت بهي الطلعة صاحب شكل حسن، وإن قلت (مُظْهِر) فهو كان حريصاً على إظهار حسنات الآخرين وستر عيوبهم. وإن قلت (مُظْهَر) فعمله وإصراره جعله واضح الشخصية كثير الظهور بين الناس، كان تاجراً ومزارعاً ميسور الحال مع أهله، ثم عاكسته الظروف فتتالت الخسارات عليه، فترك دراسته في السنة الثانية من كلية الحقوق، ليتفرغ لعائلته التي بدأت تكبر، لقد كانت قصة نجاح لا تعرف التراجع. فلم تردعه تلك الخسارات عن الوقوف شامخاً، بل كان دائم البحث عن ميدان علم ورزق جديد حيث شرع بتعلم (الإنكليزية) ليتحول إلى واحد من أشهر مدرسي اللغة الانكليزية للمرحلة الإعدادية، ثم عاد للعمل التجاري الذي نشأ عليه، ورغم ضيق اليد، عاود الوقوف مرات ومرات. لقد تعلمت منه الشموخ والإباء.. تعلمت منه ألا مستحيل.. تعلمت منه عدم التوقف ولو وقف الزمان.. تعلمت منه العطاء والبذل اللا محدود سواء لأبنائه أو لطلابه، فقد جعلني أحبّ التدريس، وكذلك فعلت أختي (حنان)، فقد كان أمثولة يُقتدى بها بحق. ويشهد على ذلك طلابه الكثيرون، وأغلبهم من الناجحين في المجتمع. أصرّ على أن يكون شمعة تحترق متلذذة بإنارة طريق الآخرين.

وإن كنت أنسى فلا يمكن أن أنسى إصراره على متابعة طريق الدراسة مهما كانت الصّعوبات، فقد مرت علينا أيّام صعبة جعلتنا نشعر بالاختناق، لذا قررت قطع مشوار الدراسة في السنة الثانية والسفر إلى إحدى دول الخليج للعمل ولمساعدته في الإنفاق على أسرتنا العزيزة على قلوبنا، لكنه رفض بشدة قائلاً: إن طريق العلم طريق لا محيد عنه، وأصرّ على أن استمر دون توقف. ثم قررت أن أترك الجامعة، وأن أعمل في دمشق، فسارع للسفر إلى دمشق بعدما شعر أن قراري قطعي.

www.kantakji.com

علمت بقدومه وخوفاً من عقوقي له، هجرت البيت ريثما يسافر كيلا ألقاه، فيغير رأيي كعادته، ولما أحس بفعلتي ترك لي بطاقة عمله وقد كتب خلفها بخطه الجميل:

ولدي سامر. .

رجائي لك أن تكون رجلا، وإنك هنا لأجل الدراسة ونلت رضائي لذلك، ولكن والله لن أتسامح معك بهذا الانهزام، وإنني لن أرضى عليك ما دمت لا تدرس.. فأملي أن تبتعد عن هذه المغالطات..

وإنني لن أرتكب خطأ والدي بحنانه معي وعطفه عليّ، فاعلم: أني مرسلك إلى هنا للدراسة وكل وقت تضيعه فهو سرقة من رضائي. ولن أرضى إلا عندما أراك أفضل مني وأملي أن هذا كائن.

واسلم لمن فقد كل شيء في سبيل أن تكون رجلاً.

لقد هزت هذه الكلمات كياني، وبدأت أجهش بالبكاء، بل تدمع عيناي كلما أعدت قراءتها، فعاهدت نفسي ألا أترك الدراسة حتى لا أقع في المحظور، لقد قال لي قولاً لا مزاح فيه: (وإنني لن أرضى عليك ما دمت لا تدرس)، فعاهدت نفسي أن أبقى أدرس حتى آخر لحظة من حياتي دون كلل أو ملل خشية أن أُغضبه. إنها كلمات رجل مربٍّ، رجل قاسٍ تحسبه لا يعرف الرحمة، لكنه بكّاء رحيم، غالباً ما تذرف عيناه دمعها، إنه الحنون (رحمه الله تعالى).

www.kantakji.com

٣) **زوجتي (رغدى) رفيقة المشوار الصعب**، تحمّلت تبعات اختيارها لرجل طموح، رضيت بوجود المعلومة ضرّة موشّحة بغلاف كتاب أو مخزّنة على قرص حاسوب، وقد صبرت علي رغم ضيق اليد التي كنت فيها، كانت تحتمل اهتماماتي، فبدل البحث عن فرص عمل لزيادة دخلي، كنت أتابع دراساتي، أشتري الكتب قبل الطعام، أسافر، أتأخر في سفري، وأتركها وحيدة لليالي طويلة، أسهر لأقرأ، أدرس باستمرار دون كلل أو ملل، وهي الداعمة بصمتها والمساندة والقانعة بدورها كمعظم النساء في بلادي، وربما كان لمؤهلها العلمي دور في تقبل طموحي، ولربما أعطاني انشغالها بعملها الخاص فرصة حرية الدراسة والتخفيف من تذمّر النساء.

ومما زاد انشغالي عن أسرتي الصغيرة أني اخترت العمل في مجال الحاسوب فكان لزاماً علي التحضير لعلومه، وتحدّي معوقات الجهل به، ومتابعة برامجه ونلت بإصراري الريادة في هذا الميدان الصعب وكنت أول من شرع في هذا المجال في مدينة حماة عام ١٩٨٥، فقد دَرّسْت نظم التشغيل ولغات البرمجة إضافة للتطبيقات، وتدرجت في ذلك مع تدرج نسخها المطروحة في السوق.

واستلزم العمل في ذلك المجال المزيد من التكاليف حيث لم تكن (الإنترنت) متاحة، وكنت أضطر للسفر إلى لبنان للعمل عليها فزاد ذلك من تكاليف عملي، واستنزف ما كنت أحصله من مكاسب.

www.kantakji.com

٤) **ولدي (مظهر)**، الغد القادم والمستقبل الجميل، فرحة قلبي وذخر الأيام القادمة، تحمّل معي ضيق يدي، وصبر عليّ أيضاً لانشغالي في الدراسة رغم أني حاولت ألا أقصّر، ثم كان من الضروري أن يشاركني في حمل الرسالة، فألزمته أن يكمل المشوار ولعلي بذلك أكون قد أكملّت رسالة أبي فنقلت إلى مظهر الابن ما فعل مظهر الأب، وبما أن التاريخ يعيد نفسه فقد فعل ليكسب رضا ما فعلته منذ أعوام لأكسب رضا أبي، لكن أظنه اقتنع بما وجهته إليه، ووصل لما أحب أن يصل إليه، وأتمنى له التوفيق والنجاح.

محطات قاسية:

- لا أنكر حبي للمغامرة واكتشاف كل ما هو جديد، وأقرّ بأني مجبول على حب التحدي وركوب الصعاب، فلا أحب كلمة المستحيل، ولا أضعها في قاموسي، فكل شيء قابل للتحقق مادام الإصرار والعمل متحدين وبالصبر مستعينين. لذلك كنت أتبنى كل جديد وأعمل على تحقيقه سواء في دراستي أو في عملي.
- مرة سألت مبرمجاً (أذكر أن كنيته: سعد الدين) سؤالا في لغة البيزيك (عام ١٩٨٥ تقريبا)، وكان سؤالاً يتعلق بمعالجة الملفات التسلسلية والعشوائية حيث كانت المراجع غير متاحة والإنترنت غير موجودة، ففاجأني بنظرات ساخرة، ثم رمى ورقتي على الطاولة قائلاً بكل سخرية: (بدك كتير لتصير)، فعاهدت نفسي وقتها ألا أسأل أحداً أبداً، وأن أعلّم الناس جميعاً، فكان منعطفاً من منعطفات حياتي.

- أمضيت خدمتي في الجندية وأنا أقرأ كتب البرمجة التي اشتريتها بالمراسلة من بريطانيا، وكان الناس يستغربون فعلي حيث أقرأ في المكان الخطأ، وكنت أهرب من الجولات التفتيشية بجعل الكتاب ورقات أنشرها وأوزعها ضمن الكتب العسكرية، فإذا جاء المفتشون وجدوا كتبا عسكرية فلا يعترضون.
- ثم اشتريت أول كمبيوتر (سنكلير، معالج Z80) وكان صغير الحجم اشتريته بأول راتب احتياط من خدمتي العسكرية وكان المبلغ حينئذ (١٧٠٠ ل.س)، ثم بدأت التطور في هذا المجال، وكان تطوراً بطيئاً جداً لأني أتعلم من واقع تجربتي لكن عزائي أني كنت أتقدم.
- شرعت أُعلم الناس وأدربهم على استخدام الحاسب في أحد المراكز الثقافية الشعبية، وكان لمدير المركز أشياء غير مقبولة فكنت أحمل حاسوبي وأذهب مشياً إلى المركز، بينما هو يخصص سيارة المركز لنقل أشياءه الخاصة علماً أنها مخصصة لنقل المدربين.
- ونظراً لكثرة الصعوبات وشدة المعاناة، قررت أن أرخّص مركزاً خاصاً بي فكانت رحلة تحدٍ جديدة بمواصفات تخصها، ولم تكن بالحسبان في بداية الأمر، إلا أنها زادت همومي الدراسية، وأخذت مني وقتاً طويلاً امتد لأكثر من سبع وعشرين سنة تعلمت، وعلمت خلالها أكثر من ست لغات برمجة، كتبت بها برامج سوقتها بشكل تجاري، وتخرّج من مركزي حتى الآن أكثر من ٢٤٠٠٠ متدرباً.

ويلحّ عليّ من همومها وعقباتها التعامل مع مدراء التعليم الخاص في مديريّة التربية الذين لا يعلمون من العلم ولا عن العلم شيئاً بل هم بعيدون عنه بعد السماء عن الأرض رغم ادعائهم بأنهم مربون ومعلمون،

www.kantakji.com

لقد كانوا معرقلين مسوفين لا يعرفون من اتخاذ القرارات إلا القرارات المؤذية، وللأسف يشدّ على أيديهم أناس معروفون ومشهورون، وليس لديهم من الغيرة العلمية أو الغيرة على مصالح الأمة من شيء أبداً. لقد كانت بيئة محبطة بكل معاييرها، تشدك شدا نحو الفساد، فيتجسد حديث رسول الهدى (صلى الله عليه وسلم) تجسيدا بأن (القابض على دينه كالقابض على جمرة من النار).

رحلتي العلمية والمهنيّة بدأت مع بداية دراستي الجامعية وهذه بعض التفاصيل أنثرها بين أيديكم وتحت أنظاركم لمن أراد أن يأخذ العبرة أو الفائدة.

الدراسة الجامعية:

* بدأت دراستي الجامعية مطلع عام ١٩٨٠ في كلية الاقتصاد بجامعة دمشق، حيث بدأت بكتابة مذكرات وأقوال اقتصادية لمفكرين وعلماء من كل الأرجاء، أسوة بما فعلته بكتابة مذكرات وقصص أدبية وأنا فتى يركض مسرعاً على مقاعد الدراسة.

لقد شكلت هذه المقتطفات بداية آراء أحسست أني أميل إليها. وكان أكثر ما شد انتباهي في ذاك الوقت هو الوحدة العربية من خلال السوق العربية المشتركة التي كثر عنها الكلام في تلك الآونة. ثم تبين لي أن الوحدة العربية من خلال المدخل الاقتصادي لن تتحقق في ظل تبعات سياسية متنافرة ومتباعدة. واستذكرت في ذاك المقام أيام العرب الجاهليين في تفرقهم وعدائهم فيما بينهم قبل ظهور الإسلام وعلمت آنذاك مغزى مقالة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومن ابتغى العزة بغير الإسلام فقد أذله الله.

* قمت خلال سنوات الدراسة الجامعية بعدة مداخلات في عدد من المحاضرات، شعرت حينها أن هناك شيئا يتوجب عليّ لا بد أني فاعله. وأنّ كلماتي يجب أن تقرع آذاناً صمّاء عنها، فالأفكار منحة الله، ويجب عليّ أن أبلّغها لأنّي مسؤول عنها، وأهم تلك المداخلات:

١- في محاضرة للأستاذ الدكتور صافي فلوح، وفي مادة المحاسبة الإدارية، وصف الدكتور صافي الإدارة الشرقية بأنها إدارة قدرية، فسألته سؤال العارف: وماذا تقصد بالإدارة القدرية؟ فأوضح بأننا مجتمع قدري اتكالي أي يُكثر من: "توكلت على الله"، فأوضحت له وللحاضرين الفارق بين التوكل والتواكل والغلط الذي قد وقع فيه.

٢- في محاضرة للأستاذ الدكتور مفيد عبد الكريم وفي مادة التخطيط الاقتصادي، قال الدكتور مفيد بأن التخطيط خُلق عام ١٩١٧ أي مع ولادة الثورة الشيوعية (الاتحاد السوفيتي آنذاك)، فسألته: إذن ماذا تسمي جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة لأرسطو؟ وماذا نسمي خطط الدول العريقة التي بادت؟ وماذا نسمي التخطيط العمراني والعسكري في عالمنا الإسلامي على امتداد ١٤ قرناً؟ فكان جوابه: إنها برامج وليست خططاً (أي على المدى الطويل).

www.kantakji.com

الدراسات العليا:

خلال عملي تابعت دراساتي العليا، وكان لكل مرحلة صعوباتها، ففي دبلوم الدراسات العليا كنت اضطر للعمل في معهدي بحماة، ثم أسافر إلى جامعتي في حلب، وأحضر دروسي، ثم أعود لأكمل عملي في حماة وهكذا. خلال ذلك كان بعض من يوصفون بأنهم أصدقائي وزملائي يحاولون ثنيي عن متابعة دراستي لأنها غير مجدية في سورية، وليس فيها جديد، وعمل أولئك الكسالى على جذبي إلى الوراء بدل أن يتركوني وشأني، وآمنت بقدرة الإنسان على صنع إنسان بكلمة إحسان وتدميره بكلمة سخرية أو استهتار إذا كان ضعيفاً منقاداً لآراء الرّعاع، آلمني جهلهم بكلّ ما ورد من آيات الذكر الحكيم والحديث الشّريف التي تحضّ على طلب العلم والسعي لإعمار الكون، آلمني ميلهم إلى الدّعة والرّاحة والرّكون إلى عيشة رتيبة تتجسد في عمل وظيفي بسيط، ودخل يستر، وأطفال نسخ عن أجدادهم، وللأسف من أولئك بعض أساتذتي. لكن المشوار لم يخلُ من صحبة طيبة حيث تنعمت بإخوة وقفوا معي، وشدوا أزري منهم الأستاذ الفاضل المربي عبد الرزاق قاسم، الذي كان يحل محلي في العمل ريثما أعود، يتابع عملي ويترك عمله، جزاه الله عني كل خير. وإنني لا أنكر أبداً أهميّة وجود هكذا أشخاص في مسيرة كل إنسان، فمن وَجد من هم على شاكلتهم فعليه أن يحافظ عليهم جيداً، فالإنسان يصعب عليه أن يسير منفرداً وحيداً.

www.kantakji.com

وبما أني كنت أهيئ نفسي لمرحلة دراسية عليا كان عليّ أن أشغل حسّ الناقد دائما مما أوقعني في الكثير من المواقف التي بقيت مرسومة في ذاكرتي ومنها :

في محاضرة للأستاذ الدكتور حسين القاضي وخلال دراساتي العليا في جامعة حلب كان الدكتور يترك المجال للطالب إلقاء المحاضرة ثم تجري المناقشة. وكان دوري يومها بموضوع "التعريف"، وبعد انتهاء المحاضرة سألني إلى أي الأنواع ينتمي التعريف في اللغة العربية: هل إلى الحقيقي أم إلى الاشتراطي أم إلى الإجرائي؟ فأجبته: هو ينتمي للتعريف الاشتراطي أي القاموسي. وسأل باقي الطلبة ثم قال: بل هو حقيقي. فقلت له: أتصف اللغة العربية بالجمود؟ فقال: نعم، والسبب في ذلك هو القرآن، وانتهت المناقشة، وانتهى الدرس وأنا في ذهول مما أسمع لا أدري ماذا أقول، لكنّ ذلك لا يعني أن أستسلم لرأي خاطئ، وأسلم بما سمعت حتى لو كان المتحدث يحمل أعلى الشهادات. وفي الأسبوع التالي وقبل يوم المحاضرة جاء أحد طلابي (في معهد الخوارزمي للكمبيوتر في حماة) وبيده عدد جديد من مجلة "الكمبيوتر والالكترونيات" فتصفحتها وإذ بمقال شعرت أني وجدت ضالتي فيها، فصورته عدة نسخ وأخذته معي. وكان الدكتور حسين يومها قد جاء بضيفين زائرين من جامعة دمشق قاما بالمقارنة بين الضريبة والزكاة، وتدخلت مراراً لإبراز الفارق بينهما في المطارح والمصارف. وفي نهاية المحاضرة طلبت من الدكتور حسين إتمام محاضرتي الماضية، فطلب مني التأجيل لكني طلبت المتابعة بإصرار، ووزعت الورقة التي صورتها من المجلة المذكورة وفيها : (أن لغويي العالم اجتمعوا، واتفقوا على أن اللغة الإنكليزية لغة جامدة لم تعد تستطع الاشتقاق، ويجب الانتقال إلى إحدى اللغات الحية والمرشحة أولا العربية ثم اليابانية ثم الفارسية).

www.kantakji.com

ثم دافعت عن لغتي وقلت للمحاضرين: إن سبب جمود اللغة هو قصور العاملين بها، وابتعادهم عن القرآن الكريم الذي حفظها لنا، فاعتمادنا على المصطلحات الأجنبية دون عناء البحث عما يقابلها في العربية هو سبب التقصير. بعد ذلك تراجع الدكتور حسين عن رأيه، قائلاً: إن ذلك لم يكن قصدي.

ومن ذكريات تلك الأيام، ومما لا يعرفه أحد عني:

- أنه في أحد أيام رمضان انقطع السير بي للعودة إلى حماة، فجلست على رصيف دوار الكرة الأرضية بحلب، وانتظرت أول باص مغادر إلى حماة، فصعدت وسألته عن شربة ماء لأني لم أفطر من صيامي رغم تأخر الوقت.
- مرة اضطررت لبيع كتبي التي أعزها جدا لأنفق على دراستي.
- تقطعت بي السبل مراراً في طرق السفر وكانت الأيام شتاء بارداً والثلوج تغطي الطرق جميعاً.
- كثيراً ما كانت وسائل النقل تتركني خارج حماة، فأضطر لمشي ليلاً أكثر من ١٠ كم سيرا على قدمي بعد عناء يوم طويل جدا من السفر والتعب، حيث لم أكن أملك أجرة سيارة أجرة تقلني إلى البيت، فأضطر للمشي الطويل.
- كنت آخذ الورق المستعمل لأدرس على صفحاته الخلفية لتعذر شراء الورق أحياناً.
- كثيراً ما كنت أسافر واقفاً على قدمي لاضطراري لذلك كسباً للوقت.
- وغيرها كثير جداً.

www.kantakji.com

الماجستير:

استغرقت دراستي في مرحلة الماجستير ما يقرب من ثلاث سنوات بسبب تغير المشرف، ثم بسبب صعوبة ودقة مشرفي الثاني الدكتور أحمد رفيق قاسم رحمه الله الذي برأيي قد أخذني جيئة وذهاباً من حماة إلى حلب مراراً وتكراراً، وكنت له مطيعاً. لقد غيّر ما كنت أكتبه أكثر من ست مرات، بل يُلحُّ على أن أكتب بالقلم الرصاص حصرياً، لكنه في النهاية أعطاني شهادة أعتز بها فقد أثلجت كلماته صدري، وكانت كلماته مفاجئة لي عندما قال: سامر (تسمرت بسبب لهجته تلك): الآن أنت باحث. فو الله نسيت كل ما مرّ بي، وشعرت أني لم أتعب قط بل سيطر عليّ شعور طفوليّ جميل لأني كدت أطير فرحاً.

ومن غرائب ما مرّ معي بعد هذه الحفاوة وكلّ هذا التبجيل أن وزارة الثقافة عرضت مسابقة يوماً لأفضل بحث يتناول مستجدات الإدارة وعلومها، فاتصل بي مدير مركز الثقافة بحماة يخبرني بها وبضرورة تقديم كتابي (أي رسالة الماجستير)، بعدما اعتذرت دور النشر عن نشره لشدة الاختصاص فيه، فاتصلت بمعاون الوزير لمزيد من المعلومات، ففوجئت بجهله بالمسابقة وعدم علمه بها، فذكرت له تاريخ الجريدة الناشرة للخبر، ثم أرسلت لهم الكتاب لكني فوجئت برفض قبوله بأقل من أسبوع. رميت الكتاب، وحزنت لذلك كثيراً.

وما هي إلا أيام، وإذا باتصال يأتيني من جامعة الإمام سعود يطلبون فيه أن تكون هذه الرسالة كتاباً مشتركاً معهم، وترتيب هذه الجامعة حوالي ٤٠٠ على العالم وليس معها سوى جامعة الملك فهد للبترول والمعادن من أصل أفضل ٤٠٠٠ جامعة كلها غير عربية باستثناء هاتين الجامعتين.

وبدأ الشكر ينهال عليّ من العديد من المدربين في الوطن العربي الذين درّسوا كتابي كمنهج لدوراتهم، وتمتعوا بالمصداقية العلميّة التي جعلتهم يردون العمل إلى صاحبه، دون أن أضحك تارة أو أغضب أخرى من لصوص استباحوا فصولاً من كتابي، وادعى بعضهم أنها رسالة بحثه.

ولا بدّ من التّنويه إلى أن أهم استفادة من تجربتي مع الدكتور أحمد رحمه اللّه أني خبرت النمذجة لتضيف لما لدي من علوم البرمجة الكثير، وأعانني ذلك لاحقاً بوضع ستة نماذج رياضية فريدة على مستوى العالم. وجمعت كل ذلك في كتاب لم يسبقني إليه أحد وهو متاح مجاناً على الإنترنت بعنوان: فقه المعاملات الرياضي، وأهديته لأستاذي الذي أجلّه أحمد رفيق قاسم، لفضله علي من بعد اللّه.

الدكتوراه:

مرحلة الدكتوراه كانت الرحلة الأكثر تعباً. فما حصل في تسجيلي للدكتوراه بجامعة دمشق كان مميزاً، وكان كفيلاً بإعلان تراجعي لو كنت ممن يقبلون الهزيمة أو يتنازلون عن أحلامهم نتيجة كثرة الصدمات، وتوالي المعوقات.

١- راجعت الدكتور حسين القاضي وأبلغته أني أريد التسجيل بموضوع "المحاسبة في الفقه الإسلامي"، فاقترح تبديل العنوان إلى "المحاسبة في الدولة الإسلامية" فرفضت، لأنه لا وجود لدولة إسلامية مما يجعل البحث ضمن إطار تاريخي محدد بمرحلة سابقة.

٢- بعد فترة من الزمن راجعت الدكتور محمد جليلاتي وكان رئيس القسم، ودار بيننا حوار طويل واحتدم النّقاش، لكن وللّه الحمد الحجّة المنطقيّة أسعفتني في كثير من المواقف، ورعتني الإرادة الإلهيّة، وثبتتني على موقفي فمن يكن مع اللّه يكن اللّه معه.

www.kantakji.com

فقد بدت ردّة فعله على موضوع أطروحتي باردة وجافّة تنمّ عن جهل بالموضوع فحمّلت نفسي واجب إضاءة جوانبه الغامضة، كما تنمّ عن استهتار بالموضوع ومهمتي المقدّسة ردّ الحقوق إلى أصحابها، حيث أجاب مستغرباً: وهل هناك اقتصاد في الإسلام حتى يكون هناك محاسبة؟ وأردف قائلاً: أصلاً لا وجود لنظرية محاسبة في العالم، إنني أريد موضوعا يستفيد المجتمع منه.

فقلت له: إنني أفيد المجتمع بما أراه مفيداً، ولن أضحي بمستقبلي العلمي لموضوع تافه.

فرفض وقال: لا أوافق على هذا الموضوع.

فقلت له: لديّ إثباتات تؤيد أقوالي.

ردّ رافعاً يُمناه: إنني ضدك في هذا.

فقلت له: إن الأمر موضوعي وعلمي.

فاعتذر قائلاً: إنني غير ضليع في الإسلام، وطلب مني أن أذهب لغيره.

فقلت له: انصحني، فقال: اذهب للدكتور صافي فلوح وكان وقتها عميد الكلية.

فأجبت مستغرباً: لكنه مسيحي!

فانبرى بحدّة يريد إلقاء محاضرة في غير محلّها: أتفرق بين الإسلام والمسيحية؟ غداً سيأتي من يكتب المحاسبة عند المسيحيين أو عند اليهود ... وسرعان ما تدخل جمهرة من حملة الدكتوراه الذين كانوا حاضرين وأدلى كل منهم بدَلوِه.

www.kantakji.com

فأجبته: وما المانع؟ فليكتب من أراد الكتابة ما دام الأمر علمياً وموثقاً. وعلى كل حال، لقد أجبتك من منطق حديثك فأنت اعتذرت لعدم ضلوعك بالإسلام، ومن باب أولى ألا ترسلني إلى مسيحي أليس كذلك؟

فسكت، وسكت الجميع، خرجت والعرق يتصبب من رأسي حتى قدميّ، هاجمني الشّعور بالأسى والحسرة، الدّهشة والاستغراب إذ لم أكن أتوقّع هذه المعارضة الشديدة. لكنّ أحداً منهم لم يغيّر رأيي، ومواقفهم لم تقلب موازيني، وتجعلني أتخلى عن فكرتي، ومشيت حتى وصلت كلية الشريعة وإذ بالدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (رحمه الله) يلقي محاضرة، فانتظرته حتى انتهى، وكلمته بما حصل معي، فأجابني: إن ما حصل طبيعي، فقد انكشف الأستاذ أمام طالبه، وبان نقصه العلمي، ولو جاء إلى محاضراتنا ودروسنا لعلمناه الاقتصاد الإسلامي حق العلم.

٣- ذهبت بعدها إلى جامعة بيروت العربية، وقابلت الدكتور السيد عبد المقصود (عميد الكلية)، وعرضت عليه موضوعي، لم يكن استغرابه أقلّ من استغراب الآخرين لكن على طريقته، وقال: هي صفحة أكتبها لك عن تحريم الفائدة، وينقضي بذلك البحث، ولا داع لرسالة دكتوراه. وطلب مني أن أعمل في مجال أكثر فائدة.

فسألته: ماذا تقترح؟

فقال أحد الحضور (وهو رئيس قسم المحاسبة): إن الدكتور عبد المقصود أستاذ المحاسبة الآلية.

فأجبته: أترغب أن أعمل في مجالك؟

فقال: نعم.

www.kantakji.com

فقلت له: يا دكتور! فلتعلم بأني أجيد ست لغات برمجة، وأكتب بأي منها، ولي برامج وأنظمة في السوق منذ سنين، وما أراه أن موضوعي لا يقارن من حيث الأهمية بما تشير إليه!!

صدمات متتالية، وانزعاج يتكرر، وما من مجيب، ومتابعة الدراسة والحصول على الدكتوراه لم يعد أمراً يحتاج إلى النّقاش، استعنت بكل ما أوتيت من قدرة على المثابرة والتّحدي.

٤- ثم ذهبت إلى القاهرة إلى مركز صالح كامل للدراسات الإسلامية، وقابلت الأستاذ الدكتور محمد عبد الحليم عمر، فقابلني بكل ترحاب، وقدم لي المساعدة العلمية التي أبحث عنها، وناقشني مطولا عقلٌ بعقل، وفكرة بفكرة، كنا إنساناً يكرم إنسانا، وقدم لي بعض أعداد مجلة المركز، ودعاني لحضور المؤتمر الاقتصادي الأول للمسلمين الذي سيعقد في الأزهر، ووعدته بالعودة. ويعلم اللّه وحده أني كنت أجمع تكاليف سفري ليرة بليرة من عرق جبيني.

٥- وبعد ثلاثة أشهر، حضرت المؤتمر، وقابلت الدكتور محمد عبد الحليم، وأفاض عليّ علماً وأدباً يُشكر عليهما.

٦- ثم قابلت الدكتور حسين حسين شحاتة، وهو لقاء لا أنساه، فقد كان مفعماً بالأدب استقبالاً ووداعاً. وكان غزير العلم، هادئ الطبع، أهداني مجموعة من كتبه ومؤلفاته القيّمة، وكتب لي ملاحظات ينصحني فيها بالتسجيل في سورية. ولفت انتباهي أنه يعلم عن موضوعي حيث تكلم مع الدكتور محمد عبد الحليم، وقد قدما لي بالفعل منحة دكتوراه في الأزهر مازلت احتفظ بنسختها. لكني آثرت سماع نصيحة الدكتور حسين شحاتة، وقد قطفت ثمار ذلك رغم ما عانيت.

www.kantakji.com

استغرقت رحلة التسجيل في الدكتوراه (المذكورة أعلاه) خمس سنوات، فقد تخرجت من الماجستير بنهاية ١٩٩٥، وقُبلت في جامعة حلب في عام ٢٠٠٠، وكان ذلك بفضل الله، ثم بفضل الأستاذين العزيزين الدكتور علاء الدين جبل والدكتور إسماعيل إسماعيل سائلا الله تعالى أن يجزيهما عني كل خير. وللقارئ أن يؤمن أنّ قارع الأبواب لابدّ أن يلج.

تحكيم المقالات:

بدأت معاناة من نوع آخر، وإن كانت تدور في الفلك ذاته، فالدّارسون في الجامعات السورية يعرفون أن من شروط المناقشة نشر مقالتين في مجلة محكمّة، واخترت مجلة جامعة حلب، وتم تسليمها المقالتين في بداية شهر تموز ٢٠٠٢، وبعد استفسارات وأسئلة عن مصير التحكيم (في نهاية شهر تشرين أول أي بعد أربعة أشهر)، فوجئت بأن أحد المحكّمين هو الدكتور عصام مريط قد أعاد البحث من دون تحكيم، ومن غير أن يكلّف نفسه عناء الإشارة لا سلباً ولا إيجابا، وهذا ما لم يحصل في تاريخ مجلة جامعة حلب حسب شهادة سكرتيرة النشر في قسم الاقتصاد، أما المقال الثاني فقد ذهب دون عودة ولا أدري في أيّ مكان اختفى، فاضطررت لإعادة تسليم نسخة ثانية.

تم إرسال البحثين لمحكمين آخرين. للأسف الشّديد هذه عقبات دربت نفسي على مواجهتها بالصبر، فرغم المكانة العلمية لأولئك فإنّ استهتارهم حيناً وإهمالهم حيناً آخر، وتبني البعض منهم لإيديولوجيا تمنعه من أن يكون موضوعياً، كفيل ببث روح الرّعب والتّشاؤم في النفس المتعبة، وكثيراً ما يكون تقديرهم ليس بنفس السوية المتوقعة.

www.kantakji.com

تعيين المناقشة:

تم تعيين موعد المناقشة بتاريخ ٢٩ آذار، وكان من بين المحكمين الدكتور ماهر العبيدي وهو عراقي، وبسبب اندلاع حرب العراق توجه الدكتور ماهر إلى بلده، واضطررنا إلى تأجيل الموعد إلى ١٢ نيسان حسب قانون الجامعة، وفي ليلة المناقشة أي ١١ نيسان وفور وصول لجنة الحكم إلى حلب "أقصد الدمشقيين" قرع أسماع الدكتور المشرف إسماعيل هاتف بأن بيته قد سُرق، فاضطر إلى العودة فوراً إلى دمشق، وبما أنه المشرف على الرسالة، فقد تم تأجيل موعد المناقشة، وعاد باقي لجنة التحكيم فوراً إلى دمشق بعدما عانوا من سفر أكثر من خمس ساعات ليتحملوا خمس ساعات أخرى في طريق العودة، فجزاهم الله عني كل خير وأثابهم على سعة صدرهم وصبرهم.

وفي ٢٠٠٣/٢٦/٤ تمت مناقشة الرسالة، وبحمد الله حصلت على ٩٤٪ ونلت درجة الامتياز. وعندما سمعت النتيجة شعرت بثمرة النجاح، وتذكرت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند فتح مكة وهو راكب على دابته مطأطئ الرأس يحمد الله، ويشكره، فطأطأت رأسي، وشكرت ربي، وحمدته أسوة بخير البرية. ومع ذلك كان لا بدّ من منغصّ للفرحة حيث رفضت رئاسة الجامعة منحي درجة الشرف وهي ٩٥٪ فما فوق رغم إصرار لجنة المناقشة. وحرصاً على ما لا أدريه حذرتني رئيسة قسم الدراسات العليا بألا استقبل الورود، وألا تصور المناقشة بالفيديو، وإلا تعرضت لوقف المناقشة. فأسندت المهمة لأخ لي أوقفته على باب قاعة المناقشة لمنع أيّ مهنئ محبّ كان أم حسود من جلب الورود والزهور، أو من إحضار تصوير فيديو، توترت أعصابي من موقف مفاجئ يعرقل المناقشة مما أضاف هذا العبء البسيط هماً إلى هموم المناقشة.

قرّائي الأعزّاء أينما كنتم: ليس سرّاً على أحد أنّني بذلت الكثير من المال والوقت والجهد حتى أُكمل رسالتي التي أردت تحقيقها، وأسأل الله تعالى أن يحسبها لي عنده، فرضاؤه غايتي.

أتذكّر كلّ هذه المعوقات التي تستطيع قتل طموح العشرات، وأتحسّر على حالنا، وأدرك أن الدول عندما تُصنف إلى دول متقدمة وأخرى متخلفة، فالفارق بينهما مدى تسهيل إجراءات البحث العلمي من عدمه، فمن يعرقل شيئاً يعني أنه لا يريده، بل ويخشى منه على نفسه. وأتأمل ما جرى وما يجري متحسّراً فتحقيق بحث كبحثي قد اصطدم بكل هذه العقبات وعلى أعلى المستويات العلمية، لذلك لا عجب من تحذير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي قال: "إذا أسند الأمر لغير أهله فانتظروا الساعة"، هي ساعة الجهل والتخلف تدق نتائجها على أبواب الأمة كلها باستعمار فكري واقتصادي وعسكري. وليت الموضوع وقف عند هذا الحدّ.

ما بعد المناقشة:

بعد فترة قام الدكتور إبراهيم فتوح أستاذ المحاسبة بجامعة حلب بطرح أسئلة تتعلق بالبحث على طلاب الدراسات العليا، وللأسف كانت الأسئلة المطروحة على الطلاب مشوهة لبعض نتائج البحث، فشكرته برسالة تاريخها ٢٠٠٣/٥/٦، ونبهت لما حصل، وقلت فيها:

أشكرك على إتاحة مناقشة بعض ما جاء في رسالة الدكتوراه مع طلاب الدراسات العليا، كما أشكرك أن سمحت لي بالإطلاع على أفكار الطلاب. لكن اسمح لي بالرد على ما جاء في هذه المناقشة توضيحاً وشرحاً.

بالنسبة لسؤالك الأول، وبالعودة لمقابل الصفحة ٨٧ نجد بخط يدك سؤالا : "هل الأصول الثابتة باعتبارها لا تخضع للزكاة فهي لا تساهم في تحقيق الإيراد؟"، ثم تتابع "هل تقصد أن الأصول الثابتة غير نامية؟" ثم أتبعت قائلاً: "وبالتالي لا تحقق إيرادا كونها لا تخضع للزكاة؟"

إن هذه الفكرة غير موجودة بالبحث على هذا الشكل، وإن دور الأصول الثابتة في تحقيق الإيراد أمر بديهي لا يحتاج إلى نقاش، وعلى كل حال، لو رجعنا إلى الصفحة ٨٧ لوجدنا أنني كتبت: " عَرْوض القنية غير نامية، أما عَرْوض التجارة فهي نامية بالفعل أو بالقوة" فالقنية هي أداة إنماء بينما الأصول المتداولة هي نامية بطبيعتها كالثروة الحيوانية والزراعية أو بالقوة كالأعمال الصناعية. وهذا ما أوضحناه في الصفحة ٧٣ السطر ١١ : "والأموال الثابتة وهي العَروض المقتناة للإنماء أي للاستثمار (القنية)" وفي السطر ١٥ : "الأصول الثابتة (عَروض القنية): وهي تلك الأصول المقتناة بهدف استخدامها لأعمال الإنماء كالأراضي والعقارات التي سماها الغزالي الأمكنة التي يسعى فيها للتعيّش كالحوانيت والأسواق والمزارع والأثاث والآلات، وقد عدّ الغزالي منها آلات الصيد كالكلب وآلات الحراثة والزراعة كالبقر وتجهيزات السفر والانتقال كالفرس. ورأى أبو جعفر الدمشقي أن العقار من أفضل الأموال لأنه يجر مالاً بصناعة وبغير صناعة"، وهذا ما أكده ابن عابدين أيضاً في الصفحة ١٠٠ السطر ٨: "لا تقوّم الأواني التي توضع فيها سلع التجارة ولا الأقفاص والموازين ولا الآلات كالمنول والمنشار والمحراث ولا دولاب العمل اللازم للتجارة". وقد نظر الفقهاء إلى سبب الحيازة فإن كان الأصل حِيز للاستعمال في الإنتاج كان أداة إنماء وعليه يعتبر من عَروض القنية أي أصلا ثابتا".

www.kantakji.com

لذلك أرجو إعادة توضيح الفكرة أمام السادة الطلاب وقراءة هذا التوضيح أمامهم إنصافا للموضوعية العلمية ومشاركة لهم فيما قالوه.

ثم سردت ردوداً سريعة على الملاحظات غير المتكررة التي وردت في أوراق الطلاب مشيراً إلى رقم الورقة، وحتى لا أطيل فلن أذكرها لكني وجدت فيها من رد على الدكتور إبراهيم مُسلّماً بأن كلامه صحيح، فدافع بعواطف واضحة وجياشة.

وللأسف لم يقم الدكتور إبراهيم بتوزيع ردودي، وقد حسبت أنه لن يفعل، فقمت بنسخ الرد وتوزيعه على الطلاب لأن الأصل الدفاع عن الفكرة لا عن أبطالها، ولأني شعرت بأنه يسعى إلى تجريح الفكرة والحط منها، فكان لزاماً علي الرد وتوثيق ذلك كله، ويبدو أن الوقت قد حان لنشر ذلك وغيره.

وبعد مرور ثلاث سنوات تقريباً على تلك الرحلة، جاء الفتح من الله العزيز الجبار، فقد حصل في سورية أن:

- سُجلت أبحاث عديدة في الدراسات العليا في مجال الاقتصاد الإسلامي.
- سُجلت عدة رسائل ماجستير ودكتوراه.
- بَدأ الإقبال على دورات الاقتصاد والصيرفة الإسلاميين.
- اِزدادت المؤتمرات في هذا الاتجاه.
- اِفتتحت مصارف وشركات تأمين إسلامية.

((ولا أقصد أن هذا بسببي طبعاً، لكنها شيء من الرؤية التي ألزمت نفسي بها))

www.kantakji.com

- فكرت بمن سيأتي بعدي، وكيف له أن يأتي بالمراجع، فأنا سافرت شرقاً وغرباً لأكثر من عشرة بلدان أجمع فيها مراجعي التي قاربت ١٥٠ مرجعاً، فأنشأت لهذا الغرض موقعي مركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامية www.kantakji.com الذي عانيت في نجاحه ما عانيت أيضاً من خذلان البعض وعرقلتهم، وهو الآن المرجع الأول عالمياً وترتيبه حسب www.alexa.com يتراوح بين ١٣٤-٣٠٠ ألف من أصل عشرات ملايين المواقع على الإنترنيت.

- نشرت حتى الآن ٢٣ مؤلفاً، وبين يدي ثلاثة مؤلفات أحضر لإنهائها، وقد عانيت من مشاكل من بعض دور النشر، وساعدني بعضها الآخر كدار النهضة بدمشق للأستاذ محمد علي السلوم، ودار شعاع بحلب للأستاذ هيثم قباني، فجزاهما الله عني كل خير.

على كل حال فإنني أسأل الله عز وجل أن يهدي من ضلّ إلى الصراط المستقيم، وأن يجزي من أعان والله على كل شيء قدير.

السيرة الذاتية المختصرة

الاسم: سامر مظهر قنطقجي

مكان الولادة: حماة ١٩٦١

المدرسة الثانوية: ابن خلدون – حماة

الكلية التي ارتدتها: كلية الاقتصاد بجامعة دمشق لمرحلة البكالوريوس ثم كلية الاقتصاد بجامعة حلب لمراحل دبلوم الدراسات العليا والماجستير والدكتوراه.

تواريخ ذات علاقة: تاريخ الميلاد ١٩٦١، والتخرج من البكالوريس ١٩٨٤، ومن الماجستير ١٩٩٠، ومن الدكتوراه ٢٠٠٣.

كلمة أخيرة..

إنه لا مستحيل البتة، لأن رسولنا الكريم (عليه الصلاة والسلام) تعوذ من العجز والكسل، فالعجز مستحيل أما الكسل فسبيله، فللمجتهد أن يجمع بين العمل والدراسة، بل برأيي إن ممارسة العمل المناسب منذ الصغر أمر ضروري، ويصقل شخصية المرء، ويجعله قابلاً لتقبل الصعاب ويمنحه التواضع والصبر والأناة. كما يمكن للمرء أن يتعلم أكثر من لغة إضافة لدراساته المهنية والعلمية شرط أن يحيل ذلك لمتعة لا لواجب، فالحب لا بد أن يسبق كل شيء ليضفي عليه جوانب الحنان والمودة، فيمتزج به حتى لا يكاد يميزه شيء.

حتى الانخراط في العمل وميادينه، لابد من السعي لجعله مصدر متعة يقوم به المرء حباً وطواعية لا كراهية، فأقل الأعمال شأنا يمكن النظر إليها باحترام، والتعامل معها كأعمال قابلة للتطوير والاستغلال لتكون أفضل وأكثر كمالاً، ويجب أن يتحاشى المرء النظر لأي عمل على أنه منحط أو دونه. فبالحب تصبح ساعات العمل والدراسة ولو طالت أشياء منتجة تضيف جديداً يمنع الملل والرتابة. وقد وضعت لنفسي عندما بدأت حياتي العملية مذ تخرجت من البكالوريوس ثلاثة أسس، حيث جعلت:

١) عن يميني قوله صلى الله عليه وسلم: من كتم علمًا ألجمَه اللّهُ يومَ القيامةِ بلجامٍ من نارٍ، فصرت أبحث عمن أعلمه صغيراً كان أم كبيراً، بل أتحين الفرص لأعلّم الآخرين. إنها زراعة الأمل حيث النبت في تربة قوامها الناس عموماً والصغار منهم خصوصاً. تُبذَر بِذَاره في كل حين فلا وقت محدد لها، قد يفلح الزرع وقد يخيب شأنه شأن أي زرع. وتكتمل المتعة عندما تمر الأيام ونجد الزرع قد نما بعضه، وقد أينع وأثمر بعضه الآخر. وباستمرار الزرع تكون العملية مستمرة لا توقف فيها.

www.kantakji.com

٢) وعن شمالي قوله صلى الله عليه وسلم: إنّ اللّهَ تعالى يُحِبُّ إذا عمِلَ أحدُكمْ عملًا أنْ يُتقِنَهُ، فصرت أحاول أتقن أي شيء أفعله مهما كان صغيراً أو حقيراً.

٣) بينما وضعت أمامي مقولة: إن الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه. وشددت عزمي بتعوذ رسول الله صلى عليه وسلم من العجز والكسل، فعلمت أن العجز مصدره الكسل ومن يومها لم أعرف أن شيئا مستحيلاً إذا انتفى الكسل منه.

أذكر أني في اليوم التالي للمناقشة، حدثت نفسي قائلاً لها: كنت طالباً لدي العذر إن أخطأت أو أسأت، أما اليوم فلا عذر، وشعرت بثقل كاهل المهمة. وسرعان ما شمرت عن ساعد العمل وعاودت نشاطي ثانية لأكون مصدراً يتكئ عليه الناس، وبحمد الله يستشيرني الناس من كل صوب فلا أترك أحداً دون مساعدة فهذا عهد أخذته على نفسي ولن أدعه بعون الله وتوفيقه. فأقرأ أبحاثاً لطلاب يطلبون تقييماً أو تصويباً، وأساعد بعضهم في اختيار أبحاث، وهكذا بلا كلل أو ملل كما قال أحد الفقهاء: من المحبرة إلى المقبرة وعلى هذا العمل معقود إن شاء الله تعالى. لذلك لابد أن يجعل كل امرئ أمامه هدفاً سامياً أو أهدافاً عديدة، وأن يوجد لها الدوافع التي تضمن تحقيقها، أما الجهد والتعب المبذولان للوصول إلى تلك الأهداف فيسهل التعامل معهما إن جبلت الأهداف والأعمال بالحب، فلأجل الحبيب تهون الصعاب، فكيف بمن جعل سعيه وعلمه لأجل الله تعالى بوصفه الحبيب الذي ينبغي التقرب إليه بما يحبه؟ فحتى لو عاكست جميع الظروف اتجاهات الإنسان صاحب التصميم والإرادة، فلابد أنه سيذللها بصبره وأناته، واجتهاده، وليس القصد أنه خارق، بل سينتابه ما ينتاب الناس جميعا من تعب وخوف وتكاسل، لكن شدة الحب للحبيب المرتجى، ثم قوة الإرادة سيصلان به لما أراده.

www.kantakji.com

فقد يعترض فئة الشباب قضايا لا يساعدهم فيها أحد، ومن ذلك قلة المعلومات عن السبل أو الفرص التي توفرها كل كلية للمتخرج، وهنا لابد من سؤال أهل العلم والخبرة، فإن لم يجدوا، فعليهم البحث في (الإنترنيت)، أو بملاحظة مسيرة بعض من يعتبرونهم ناجحين مع ضرورة التأني في ذلك لاختلاط الأمور كثيرا في بعض الأحيان.

وعلى كل واحد منا أن يعلم أن النجاح قد يكون في مجال الدراسة أو في مجال العمل أو في كليهما وهذا الأفضل، فإن علم أحدنا نقصه، فقد حقق شيئاً كبيراً إذا قام بترميم نقصه، فمن أفلح في الحياة العملية عليه أن يجبر دراسته وعلمه، ومن تفوق في الدراسة عليه أن يبحث عن قصص النجاح لينسج على نسجها فلا يحق له التكاسل في ميادين العمل أبداً.

فإن ضاق مجال الرؤية، وقل وضوحها فلا بأس أن تكون الدراسة لأجل العلم، ثم أن يسعى المرء بنفس الوقت لتبني عمل يرتضيه لنفسه، ثم يطوره، وحبذا لو أعاد الدفة إلى مكانها في القيادة حيث يعيد توظيف ما تعلمه ودرسه مع ما يعمله ولو اضطره ذلك لبعض التغييرات، فالتغيير سنة الكون ومنهج واضح من مناهجه.

وإني لأرى في (الإنترنيت) ومنصات التواصل الاجتماعي منطلقاً تفاعلياً يجب أن يسخره أولئك المختصون خير تسخير، فقد بات جمع الناس من ذوي الاهتمامات المشتركة سهلا والتعارف والتواصل أسهل.

أما رأي الناس بعربهم وعجمهم، فهو تحصيل حاصل لأن النجاح كفيل بتغييره، لذلك يجب أن نتحاشى نظرة المجتمع المتخلفة لبعض الاختصاصات، فالشوق لا يكابد إلا صاحبه، وعليه فالمختص هو من عليه أن يكابد لبيان متعة اختصاصه وجودته.

www.kantakji.com

أعزائي القرّاء !

نثرت بين أيديكم أيام عمري كلمات على سطور، لكن عليكم التنبه بأنها ليست حروفاً سوداء الحبر، إنّها من دم ولحم، أعصاب احترقت، وأحاسيس تأججت في رحلة عبور من قعر الجهل إلى نور العلم، كلماتي هي إنسان هو أنا وأنت، نسعى لإعمار الكون، وأعوام مضت وانقضت لكن ما يعزيني أنّها لم تَضع هباء منثوراً بإذن اللّه.

والحمد للّه رب العالمين. واللّه تعالى من وراء القصد.

إنها مقتطفات من مسيرة حياة رجل أعطى نفسه للعلم فما بخل عليه بما أراد من وثائق تدعمه، وتفتح الأبواب في وجهه ليبلغ رسالته رغم أنّ المراد أكبر وأكبر، والأمل أن يسجل في صحيفتي طالب علم.

أهديها إلى كلّ من تؤرقه مكانة النجوم في السماء! وإلى كلّ من يسعى لوضع بصمة في حياته قبل الرّحيل عنها! وإلى كلّ طالب علم طموح.....

الدكتور/ سامر مظهر قنطقجي